صوفية الحلاج بين الدلالة والممانعة

((قراءة سيميائية في ديناميةالنص الصوفي))

أ.م.د.ناصر شاكر الاسدي

جامعة البصرة / كلية الآداب

توطئة :

للدلالة والممانعة ارتقاءان في الحركة الفاعلة التي تشترك في رفد العلامة الاعتباطية وصولا لاستراتيجيات في المعنى المغاير والمسايرالذي تجسده الصوفية كمعيار تفاعلي في تنويع دلالات رموزها المؤثرة في الفكر والمنهج.والحلاج واحد من الإشاريين القدماء الذين رفدوا الاتجاه الدلالي بمعانيه الباطنة وصولا لثلة من التأويلات التي كانت السبب وراء ظاهرة الترميز والغموض التي غلبت على المنهج الصوفي , الأمر الذي أدى لظهور مرحلة من مراحل الصراع الفكري حوربت بها تلك الأفكار حربا قاسية لأنها كانت بمثابة الخروج من الممكن إلى اللاممكن.ونحن في هذه القراءة النصية سنسلط الضوء على ثلة من المقتربات السيميائية التي تتبنى دينامية النص ومدى الترابط الوثيق بين الدلالة والممانعة كونهما يشكلان نمطا من الأنماط الفاعلة في حركة النص الشعري وتقصي ديناميته كونها أحد المسوغات للحركة الانفعالية التي ينتج عنها الشعور بالممانعة التي تشترطها السيمياء كعامل للنجاح في استقصاء الفاعليات النادرة والمؤثرة في اكتشاف الديناميات وإبراز ظواهرها وكشف النقاب عن الاغتيالات النصية التي تعمل على سحق الأنماط النادرة من الممانعات الفكرية المقلقة.وعند دينامية النص نتحرك بشكل تلقائي لسبر أغوار التأويل كمنهج احترازي يحق لنا من خلاله أن نتأول كل إشارة ترد إلينا وهي حاملة لتفاصيل ترابطها السيميائي في نسق تفاعلاتها وانزياحاتها اللغوية.إن الخطاطات التي أعددناها لرسم التشكيل الحركي لدلالات الحلاج إنما تندرج ضمن القيمة الاعتبارية التي يعدها رجل كالحلاج كان على وعي من خطاباته التي اشتغلت على التأويل المغاير. ومن المقتربات السيميائية نقوم بقراءاتنا التي ستسلط الضوء على الدينامية النصية ودراسة التشكل النصي واسترجاع كل ظواهر الحركة الفاعلة للنص الصوفي , ثم نوضح ثانيا الترابط السيميائي بين الدلالة والممانعة ورسم حيثيات تلك العلاقة بين الممانعة النصية والاغتيال , ثم نسلط الضوء ثالثا على كونية تلك النصوص التي طرحها الفكر الصوفي وعلاقتها بالموروث النصي ثم نعرج أخيرا ومن منظور الصورة الذهنية على العتبات النصية التي شغلت المنهج الصوفي ومازالت إلى اليوم مثار إعجاب ودهشة كونها شكلت خطابها التأويلي المستقل. وكما هو مشتغل في أدناه :

١- دينامية النص عند الحلاج (التشكل النصي):

يعد استرجاع ظواهر الحركة الفاعلة التي ينطوي عليها النص ألحلاجي أمرا بالغ الأهمية لقرون معرفية خلت وكون تلك الدينامية تشكل في هرمها الاتجاه اللغوي والمعرفي, والحديث عن دينامية النص يعني الدخول لمداخلات التفكيك وصناعة نصوص بديلة تعمل على انتفاء الأخرى ,من خلال النثر أو الشعر اللذين كان لهما الأثر المستفز للمتلقي على مر العصور وظهور الاختلاف والأثر كمصطلحين تتبناهما الكتابة كتعريف يتبناه جاك دريدا لأنها أي الكتابة مشفوعة بالأثر الدال عليها , الذي يعمل على إيجاد الملامح الاختلافية بشكل مباشر ومن خلال عملية المحو للشيء بينما يبقى أثره في علاماته المتبقية [١].وحركة النص إنما ننظر إليها من خلال التضامن بين العناصر المكونة للشكل الكلي المتكون الذي يترك لنا الأثر الدلالي المتشكل في الفراغ النصي بجوهريه المتماثلين في اللغة والفكر والانطلاق بها في كون ميتافيزيقي آخر له وجود كوني و((**هو تشكيل لبعد وجودي آخر من نفث خلال اللغة أو هو عملية الروح في اللغة بوصفها جسدا**)) [٢].

قال الحلاج [٣]. روحه روحي وروحي إن يشأ شئت وإن شئت يشا

إن الذي نراه حقيقة هو نوع من إخضاع اللغة أو التحايل عليها , وهذا هو نوع التأويل المغاير الذي تتبطنه الجملة النصية كونها تعتمد سياق الفناء النصي وتحويل المعنى المكشوف إلى معنى آخر يكون من خلال الإشارة والتأويل إلى الجملة الصوفية التي يستقر بها المعنى الأخير.إن التزامن في ثنائية المعنى الخاص عند الحلاج يوضح ذوبان الذات في ذات أخرى عن طريق دمج الفواعل الحركية للنص وإرجاع كل ماهو جزئي إلى الكلي , وتعميم نظرية تحرك الجزء بمشيئة الكل في كل نمط من أنماط الجملة الصوفية المتكونة على الدوام , ولذا فإننا ملزمون من خلال التطبيق إلى إحالة الجزء إلى كله ودمج الاثنين معا في تشكلهما الخاص نصا وتأويلا شكلا وظاهرا وتبطينا على أن لا ننحرف عن سياقات الحركة النصية في بعدها التكويني والإنبعاثي.إن الخطاطات التي أعددناها لرسم التشكيل الحركي لدلالات الحلاج الصوفية إنما تندرج ضمن التكوين الذاتي المحض من خلال رسم علاقة عالية المثول لأن ((**كل القضية كانت منذ البدء.. وستبقى..علاقة الذات بالذات**)) [٤] تلك الذات تعد غاية في العمق الكمون والمطلق حيث نواجه الوجود الذي لم يكن لندرك معناه يوما وهو بمثابة درجات قصوى للميل التكويني الذي نرتبط به , وهذا ما لايمكن لنا أن نتأوله على الإطلاق من باب تأويل الضد بالضد والنفس بالنفس ليكون المجال التصوري في مرحلة الشخوص لتصوير الومضة المتقدة في الذهن والراقدة للرضا المطلق بغير إبداء لرأي وتسليم لمعرفة [٥] إنه الرابط الحركي الذي كان مختلفا حينما قفز على حائط الجسد الذي لم يكن يوما إلا حاملا للفكر لاغير. قال الحلاج [٦].

كتبت إليه بفهم الإشارة وفي الأنس فتشت نطق العبارة

إنها قمة الإشارات الدالة على نسق التماهي مع الذات , التي لا تليق بها من مصنفات العبارة إلا حالة الأنس(الانقطاع التام) في حضرة الذات الإلهية. ويعتمد إيجاد العبارة الدالة على الفيض والتقريب من خلال ذلك الأنس (الحضور) الميتافيزيقي الأعلى لاستحضار سكنات الفوق البشري لمعرفة كوامل الألفة في فهم ذلك الترابط المعنوي المتكون.إن إشارات الحلاج تخضع في ولادتها مخاضا خاصا يتشكل من خلالها النص, وذلك النص إنما توجده المقدرة الذاتية بوعي مسبق وتكوين إرادي يتمحور من خلال البنية العميقة للنص ومدى

قدرته على رسم الإيحاءات المتبلورة عبر المتخيل الصوفي ذي التجربة الجريئة والممانعة ,وذلك النص الذي نسميه بالنص الصوفي إنما كان نصا خطرا منغلقا على ذاته محرج لمتلقيه صعب المراس على غير مريديه. والنقد يجد الصعوبة إذ أنه نص عال التفعيل ((**مغلق تماما لا يمكن فهمه وتأويله, ومحاولة تأويله ضرب من الالتواءات النقدية التي ترسم معان ونتائج مسبقة دون نظر وتحليل علمي مشروع**)) [٧] ومثال ذلك ما جاء في طاسين الدائرة ((**هذه صورة الحقيقة وطلابها وأبوابها وأسبابها**)) [٨]

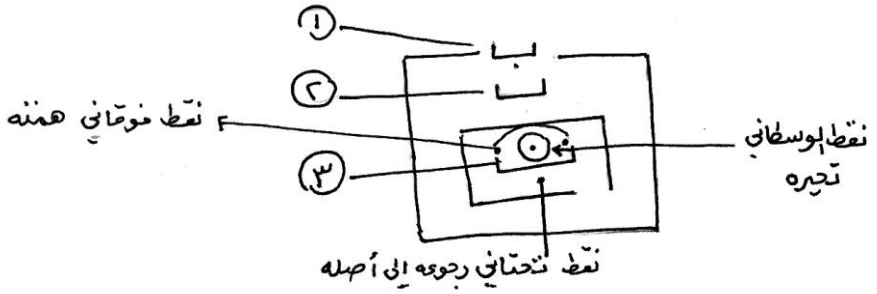

فالباء الأولى ما تم الوصول إليها الثانية وصل وانقطع طريقها والثالثة ظل في مفاوز حقيقة الحقيقة إذ لا دخول للدائرة لان الطريق مسدود والطالب مردود والنقط العليا همته والسفلى رجوعه إلى الأصل والنقط الوسطى تحيره إذ أن معنى الحقيقة شيء لا يغيب عن الظواهر والبواطن ولا تقبل الإشكال.مما سبق كان لنا محاورة مع طاسين الدائرة وهي في قمة تشكلها النصي وهذا أمر بالغ الصعوبة لأنه مغلق وليس له أبواب تطرق ولا تأويل يجدد فهم الفهم ومعرفة المعرفة لان ذلك يدفعنا الاستعانة بمنهج التأويل ومنطلقاته الفلسفية وعلى ((**تصميم يخضع لهندسة من الافتراضات وطرائق البحث**)) [٩].كما أن حركة النص الحلاجي مرهونة بالصفاء الذاتي تتوالد عن شعور إغراق الذات في خطوطها الغيبية لتصل إلى ذروة الفصل بين التجديد والتحديد وبين الحدود وبين الحدوث.إن التشكيل النصي أو **ما يطلق** عليه بعلم بناء النص هو سياحة كون نصية في تعالقها البنائي إذ يتجسد المعنى بالمنظور العام لصناعة النص من الناحية الانبعاثية للنص توازي المقدرة التي عليها ذات المؤلف في إطارها الثابت والمتحول , وأعني بالمتحول التشكل الناتج عن عملية التغيير الجذرية التي تواكب نصوص الحلاج من وجهة نظر التأويل والتشريح وصولا لمقومات السيمياء الحديثة كون الأولى تتحدث عن الكتابة والأثر والثانية عن فسلجة النص والثالثة عن الخرائط الاشارية التي تقدمها السيمياء لكل اتجاه بعينه. وذلك إنما يوصل إلى مرحلة التكثيف النصي واعتماده لأصغر سيموز فيه. ويفهم ذلك بالاتصال الباطني للغة كذلك ((**يؤشر إلى الوظيفة الخاصة بالاتصال من منظور مباشر من خلال صياغات أدائية صراحة مع أفعال أو مركبات فعلية**)) [١٠].إذن البنية النصية ليس العلاقة والتشكل حسب وإنما تتعداها إلى قدرة التضامن بين العناصر الكلية والتي يمكن أن نشخصها دائما بفعل تماسكها المستمر[١١]. وما دمج تلك العناصر بحروف ربطها كافة إلا دليل لتلك القصدية في التعامل الجزئي نحو الكلي قال الحلاج في طاسين التوحيد [١٢]

١-٢ والألف الخامسة هو الحق , والحق واحد ,أحد , وحيد , موحد.

٣-٤ والواحد والتوحيد(في) و(عن) و(منه) بينونة البينونة وهذه صورته :

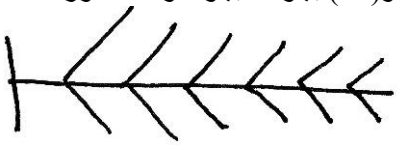

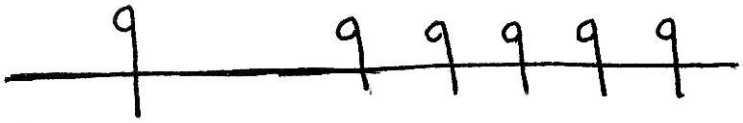

يوضح الرسم أعلاه علاقة الحرف الجزئي بما هو كلي لتشكيل وبناء النص بإشاراته المتفردة , التي تعد نوعا من المغاليق النصية التي لايمكن للنقد أن يمارس رياضات تأويله إلا بالرجوع لمصادر ومعاجم التصوف وما تتأوله في تفكيك الحيثيات الدالة عليها.إذن نحن نعتقد أن دينامية النص الحلاجي هي من أكمل الديناميات النصية لأنها تتحرك ضمن المعيارية اللفظية منزاحة عبر اللغة ومحتالة عليها ,كونها عصية على كل طرق الانفتاح بسبب صعوبة شفراتها المتعالية جدا.

٢- الترابط السيميائي بين الدلالة والممانعة:

إن استخدام طرفي الدلالة والممانعة في نصوص الحلاج إنما يندرج ضمن علاقة الداخل المتشكل عبر الأثر الممتد إلى الشفرات المرسلة التي وظفها الحلاج في خطابه الصوفي التي ربطها بشرائط تأويلية غاية في الصعوبة. ونحن إذ نعقد الصلة بين الدلالة والممانعة لأن صعوبة الإشارات الدلالية وخفاء طرقها وكثرة مغاليقها يصب في مصلحة الممانعة القوية التي أدت بالحلاج إلى تحدي قاتليه والضحك عليهم. أو ليس الصوفية أبعادها من ((**أشكال الرد العفوي على استبدادية الحكم**))[١٣]. وأهم طرق ذلك الترابط وخاصة في الفكر الصوفي حينما رأوا إمكانية معرفة الله من غير طريق الوحي المطلوب , ولتبقى النصوص الصوفية تجنح للتأويل في تفسيرها للباطن والظاهر وهذا ما أبقى حركتها المحورية ضمن مجال الممانعة والثورة. إن المهم في أصل الدلالة المحورية هو تبني قابليات الكشف الباطني وإبقاء الظاهر للحاكم الأمر الذي دعا السلطة العباسية لان تتبنى إبادة الفكر الصوفي لأنه يتعارض مع أيديولوجيتها التي تصادر وجود أي فكر بديل يتعارض مع فكرتها التي تحصر الفكر لله والوحي

قال الحلاج [١٤]. شغلت جوارحي عن كل شغل فكلي فيك مشغول بكلك

إن الدلالة في أعلاه تتجلى في تجاوز الجزء إلى الكل والانشغال في حركته الدائبة وذلك إنما يعطي المسوغ الفني لتجاوز خطر الاغتيال بحيثيات توفيقية لايمكن الوصول إليها إلا من المعرفة الكاملة لمبدأ الممانعة الشعورية واللاشعورية النابعة من قدرة النصوص التي أغرت الآخر إلى إصدار عقوبته في اغتيال الجسد ودون المرور بالفكر الذي حاربوه ورفعوا لواء أن لا أفكار أرضية تحكم ولا وحي ينزل لان الفكر السماوي إذا ما عاد للتأصيل فانه سيكشف خواء وانحراف السلطة وحاكميها.
والترابط نعده اتصالا مركزيا بالقوة العليا وانفصالا عن القوة السفلى أي قطع الفيزيقي وتماهي الميتافيزيقي وهذا أصل فلسفة تحول الأشياء من ((**الكائن الأرضي إلى الكائن السماوي أي من عالم النقص إلى عالم الكمال**))[١٥].والممانعة وإن كانت تعمل بتحولاتها من خلال عملية الاندماج الكلي بالدلالة المؤطرة بإشاراتها التكوينية ذات البعد الفلسفي والروحي. والسيرورات الدلالية هنا تتبنى عملية الدمج بين الظاهرتين واعني الاغتيال والممانعة اللتين تعطيان ذرائعهما المنطقية في انزياحات خاصة في اللغة والفكر[١٦]. ومن خلال حساسية الحركة البنائية للنص أو الميتا بنائية التي ترسم لنوعين من دوافع الانفلات من سيرورات الجزئي إلى الكلي أو مايعرف بالداخلي والخارجي في ظل الحدود الممكنة لحركة السيمياء الانبعاثية التي يراها يوري لوتمان بأنها تتسم بالازدواجية[١٧]. من حيث أنها تدور في فلك واحد من الحركة مرة والسكون مرة أخرى لان السكون يشكل في حقيقته سيرورة انبعاثية تتحرك بأقطاب حركية كامنة تقوم بالتولد على حيثيات تلك الحدود. اجل نحن نجانس من حيث الارتداد لان كل النصوص إنما تمتلك قدرا اكبر من الانتماء للفوقي أو الخارج نصي بوحي من عوامل الدراسة الانثربولوجية لتعدد مناشئ النص الواحد عبر الاستغراق الوظيفي المتبع في كل سيرورة انبعاثية تستطيع أن توظف اللغة لأغراضها المتاحة , يقول الحلاج [١٨].

حنين المريد لشوق يزيد
أنين المريض لفقد الطبيب
قد اشتد حال المريدين فيه
لفقد الوصال وبعد الحبيب

وذلك مايطلق عليه بالالتحام أو التمازج في بنية النص ألحلاجي وهو من النوع الوظائفي الذي يعرضه النص ((**حيث نجد أن المعرفة التي يحملها النص تتخذ شكل بنية فنية تمارس فتنتها على المتلقي دون أن تضيع مصداقيتها الفنية**))[١٩]. ونحن كذلك نعرف النص بأنه النظام البديل للغة حيث آن النص الحلاجي يعد نظاما بديلا عن اللغة يقفز عليها بل يخدعها لما هو أعلى وأجمل لان النص كان يحمل تفاعلا موضوعيا كونيا سنأتي إلى توضيحه في المقترب الثالث. إذن الدلالة المحورية تتجلى في ربط وشائج ماكان ممانعا أصلا واقعا لامحالة في ضرورات الاغتيال الفني والحرفي للنص دون الحاجة لطمس اللغة المتشكل منها لأنها بغير المغاليق التي تغري المتلقي للكشف عنها.ونحن ننظر للاغتيال من وجهة نظر التبئير لمجمل عوامل الإزاحة في مسارات اللغة والنصوص ثم يتعداها إلى الفكر المغاير وصولا لتغييب الجسد نهائيا كما فعل مع الحلاج وطريقة التفكيك لمجمل فكره الصوفي وهي الطريقة الأنسب لكشف التناقضات الأيديولوجية التي استقصت على مخالفي الحلاج , فأهل التفكيك ينظرون إليه على أساس ((**التأمل في الآليات المختلفة التي يواجه بها الفكر النقدي العربي في لحظته الراهنة متغيرات الكوني الشجاع المتسارع**))[٢٠].وذلك إنما نفهمه تشريحيا لمغاليق نصوص كان الترابط وشيجا بين دلالتها الموحية بالكثير من الإشكالي المعرفي والتحليلي المنهجي.إن أيديولوجية الاغتيال تتمحور في تصديها لثوابت خاصة لكيفية محاربة البعد الآخر المتمثل بالممانعة الحركية الفاعلة من لدن الذات التي تتماها في غياهب النص الذاتي المشتمل على الكوني منها والغيبي ,وإلا ماسر تلك الصعوبات البالغة التي أعاقت الاغتيال من خلال الوجهة المنهجية ,إذا ماأدركنا أن الموت في قياس البعد الصوفي هو حياة بل بداية حياة , قال الحلاج [٢١].

ركوب الحقيقة للحق حق
ومعنى العبارة فيه يدق
ركبت الوجود بفقد الوجو
د وقلبي على قسوة لا يرق

هكذا نفهم إصرار الحلاج في ترابط دلالاته مع ممانعاته لتصل إلى المستوى الذي أقام بها الدليل على ثلة من الجاهلين لمنهجه الذين لايعرفون المعاني المقصودة. وحركة الحلاج كانت ضمن محور السكون المتناهي الذي عبر عوالم المنهج إلى الخصوصية العرفانية , كون العرفان لايقوم إلا بخصوص صور العلامة والدلالة كسفر شاهد على حركة الإشارة والعبارة على أصعدتها التوفيقية والتجريدية. حين ترى العلاقة بين الدلالة والذات الإلهية على أنها خط رفيع يجسد مرحلة الانطلاق الروحية وهو إنما يفهم أي الحلاج ذلك الفهم من خلال الرؤية الآتية[٢٢].

رأيت حبي بعين قلبي — فقال من أنت ؟ قلت أنتا
أنت الذي حزت كل حد — لمحو أين ,فأين أنتا
فالآن لا أين منك أين — وليس أين بحيث أنتا
وليس للوهم عنك وهم — فيعلم الوهم أين أنتا

هذه خلاصة فهم الحلاج للبحث عن ربه وهو فهم نابع من القلب وهذا الحب متوجه إلى اللامحدود لان الله لاحد له لان الله لا أين

له نعرفه فالله هو الله وهو في كل الوجود لايحده المكان ولا الزمان لأنه الأين والزمان وفوق المكان ولا يمكن للوهم أن يسيطر على لذة الفهم لأنه قاصر عن فهم حقيقة الوجود لذا فان الحلاج يعبر عن فهمه بالاتي[٢٣].
وصورة الفهم هذه:

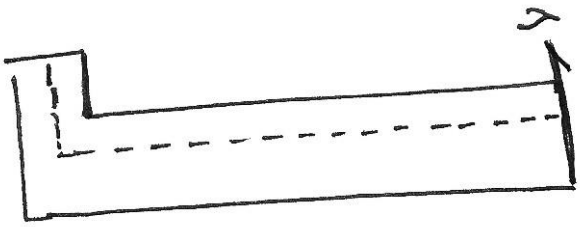

فالنقط أفكار الفهم الواحد منها حق وماسواها باطل.نخلص للقول إن علاقة الترابط في دلالات الممانعات الوجودية تتبلور في التفرد الصوفي الذي يعمل على التحول الباطني للوصول إلى ذروة مافي الإنسان من صفاء ونقاء للتأمل في خلق الله وبديع قدرته.

٣- كونية نصوص الحلاج وانطلاقها من الموروث إلى الراهن :

إن مكونات الداخل وبنيته تجدان الضرورة لصناعة فوقية تنقلب على ظاهر الحس بمكشوف آخر يجسد تطور النص من الأرضي إلى الكوني بوحي من عوامل التحضير والإرادة لتلك العوالم. ومن خلال الرياضات الروحية والفلسفية للوصال بعيدا عن الانفصالات والممارسات التي تعيق الكمالات الروحية الذاتية.والكوني ما اندرج على خوض غمار المغاليق وتجسيد مقولة أن لا حواجز في إطلاق المرسل لمتلقيه عبر الباث الكوني الموحد.إن نصوص الحلاج تتحلى بدينامية حراكها الدائب كونها تشكل نقطة البدء لإشعال حركات ما وراءها من نصوص. إن النص أي نص إنما يتحرك عبر نواة انثربولوجية تشبه نواة الذرة أو النوية المحايثة التي تنتج الشفرة والتي بدورها تولد الصور الباطنية وصولا للخطاب. والصور المنتجة هي ارتداد حيثي لمجمل تجاذب نوية النص ومدى تأثيرها على المنتج النصي وهو في طورمن أطوار نموه ونعبر عن ذلك باللاانفعال كون الانفعال يأتي وليد الحس وكما يعبر عنه الغذامي
((**وهي حالة (الانفعال) التي تعتمد على التعبير الوجداني المرتكز على الحس المباشر الذي ينشا عن انفعال تلقائي**))[٢٤].ذلك الانفعال التلقائي هو ارتقاء خاص للشعور الانفعالي وتخلصه من معوقات الهوى ليصبح شعورا لا انفعاليا في إرادة الذات الإنسانية لان النص يركز دائما على الكينونة اللغوية وترابطها بما يماثلها من مقاربات في الفكر والكون.والنص الصوفي يعد بمثابة أكسير كما في علم الكيمياء الذي يحول التراب بعناصره إلى الذهب لذلك فان عنصر النص الصوفي متحول عن ذاته كونيا عن جسديته النصية إلى مايشبه معادلة المغايرة في الذهن. والمذهب الصوفي هو ((**الوصول إلى بداية النهاية**))[٢٥].هذا الأول أما الثاني بلوغ الاتصال وهو مركز النص الكوني الذي يدرك من خلال روح النص البشري وصولا للإدراك والوعي الكلي أو الحقيقة الجامعة لكل الشرائط الكونية في نصوص الحلاج[٢٦]
تلك النصوص تحظى بقدر وافر من سعادة الصوفيين لأنها تسقط عنهم الجهد المادي امتثالا لسيرورة ذاتية كونية تمتع أرواحهم بلذة المصير.إن النظام الإجرائي الذي تحدثه فاعلية العلامات من خلال التوالد الموضوعي (النصي) بمستوياته المتتالية ضمن سلسلة ايونات تشكل بمجموعها منظومة تقفز على تفاعلات الفونولوجي واللساني عبر ومضات فاعلة تتحدد بالطاقة الشاحنة لكل حرف من الحروف الموجودة أصلا. يقول الحلاج في رصد انطلاق الفكر من دلالة الموروث إلى دلالة الحاضر المستمر لأنه يتعامل مع كينونة الحياة المطلقة إذ لاموت في الوجود[٢٧].

أنت المولـه لي لا الذكر ولهني
حاشا لقلبي أن يعلو به ذكري
الذكر واسطة تخفيك عن نظري
إذا توشحه من خاطري فكري

قلنا إن التماثل والتشكل في نصوص الحلاج تأتي في سياقاتها النصية وما يستطيعه الذهن فيها من تحويل وتغيير إلى ما يبني نصا متكاملا يقفز فوق محليته وليكون حاضرا في كل زمن والدليل على إشكالية الحروف التي تبناها الحلاج استعصت في زمنه وصارت رمزا وشفرة لخطاب في زمن آخر. ونحن نقوم بدورنا بفتح تلك الشفرات بصعوبة بالغة يرسم الحلاج شفراته وخاصة في طاسين التنزيه[٢٨].

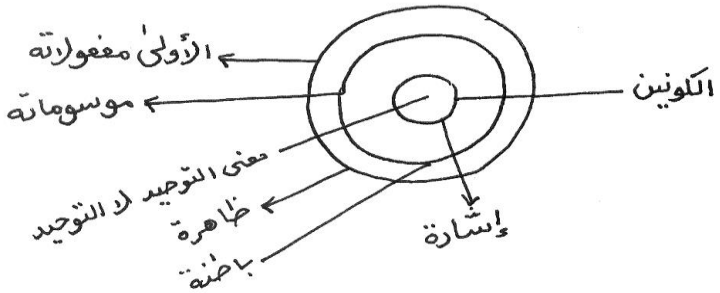

إن تلك الإشارات هي مدار اقترانها بآجال حياتية قادمة أراد لها الرجل أن تتفاعل في كونيات أخرى.

والكون هو المستودع المنضبط الذي لايترك تداعيات الحروف والأفعال تذهب وكأنها تدور حول الشمس لتستلم منها الطاقة للبقاء.
والنص الكوني نص معرفي أممي يتفاعل مع الروابط الحيثية لما يوازيه بين الأمم وهذا يتطلب منا قراءة واعية تخرج من إطار الانتقاء الذي يبحث عن الشواهد التي تؤيد فكرة هنا وأخرى هناك[٢٩] ولان المنهج الكوني يخرج دائما من القراءات المستلبة المستوحاة من النظم المعرفية المغايرة والمعادية قال الحلاج مازحا[٣٠].

كما ذهب الحمار بأم عمرو
فلا رجعت ولا رجع الحمار

وكأن الحلاج يسخر من خواء المعرفة التي يحملها الحمار كسفر لايفهمه بل أن السفر الذي وصل مع الحمار قد ضاع وهذه دلالة على ضياع الناقل والمنقول وهي إشارة دالة على غياب وعي الباث والمتلقي.
والمنهج الكوني يدعونا مع نصوص الحلاج إلى الارتقاء الجمعي لكل مكونات المحلي التي قد تتزاوج فيما بينها لتشكل امتدادا معرفيا يؤدي إلى سياق المكونات الشاملة لان البنية في أوليتها تمتلك فاعلة الرصيد الأولى.والأسباب أغرتنا لتناول نصوص الحلاج لأنها تمتلك شرائط القدرة الانزياحية تجاه كل البنيات النصية العالمية لأنها علة الشمولية الكلية في رصد الظواهر العليا لفلسفة الأضداد وخروجا من رحم الانعتاق وتخلصا من إسار المنظور السائد المتكون عن عقدة الضحية والجلاد.إن أهم عوامل نجاح النص الحلاجي انه سخر بشدة من جاهلية معاصريه الذين كانت ترعبهم دوافع الرمز والإشارة التي عملت ناخرة في المجتمع العباسي المتآكل.ويمكننا أن نفكك المنهج الصوفي من خلال التأويل لتلك النصوص التي تحدد بالحركة الفاعلة القادرة على الانزياح الكلي المتفاعل مع الكون النصي على أساس أن الكون الميتافيزيقي يتبلور من خلال الرؤى الزمكانية التي لاتتشكل في حيز الوجود. ونحن نفترض ذلك التشكل على سبيل الافتراض وكون الأزمنة المتعالقة مع الامتداد المكاني هي أزمنة تراتبية تندرج من خلال مسمياتها التكوينية غير عابئة بمسمياتها الاندراجية في وحي من التكوين للمنظور الميتانصي المهيمن على عصب الانزياح الافتراضي لما له من حيثيات التماهي الانفرادي والتداعي المختلط قال الحلاج[٣١].

والله , ماطلعت شمس ولا غربت
إلا وحبك مقرون بأنفاسي
ولا جلست إلى قوم أحدثهم
إلا وأنت حديثي بين جلاسي
ولا ذكرتك محزونا ولا فرحا
إلا وأنت بقلبي بين وسواسي

خلاصة القول أن النص الكوني الصوفي يعد الناقل الفاعل من أصول الموروث إلى راهنية فاعلة لم تطمسها المتغيرات النصية المتداخلة المفروضة أو المنقولة. لهذا فإننا نؤمن بجدارة النص الصوفي لتحميل الميراث العربي والإسلامي إلى قرون قادمة.

٤- العتبات وتأويل الخطاب الصوفي :

تعد العتبة النصية الواجهة العليا لفهم النص والدلالة الموحية لسيرورته وانطواء معانيه.وقد دأبت الصوفية ابتداء من المدخل الأول والباب الأول لفكرهم لان ((**العنوان بما يحمله من قصدية فاعلة لكشف الباطن بفعل إرادة ملزمة للبداية وإخراج المعنى**))[٣٢]. تلك القصدية التي رافقت النص الحلاجي ومنذ الكلمة الأولى التي عرف بها ألا وهي التصوف تلك الكلمة التي حملت على مداليل قطعية لما ينطوي عليه النص بل الأجزاء الصغرى للنص الصوفي ونحن حين نحيل وبدرجة من الوعي الذي نملكه نقول صوفي فإننا نحملها دلالتين الأولى حسية وتعني اقتران المتصوف بلبس الصوف دليل التواضع والفقر والتقشف والزهد في الدنيا والثانية معنوية وتعني الصفاء والطهر وانتفاء الشوائب والأدران البشرية والخطايا.
والمتصوفون أناس فقراء يحاكون الطبقة الفقيرة ولايقفون على نوال غني أو متسلط وهذا ما دعا القوم إلى إدراجهم ضمن قائمة الخطرين على النظام. ومثلما يمثل العنوان رمزا لمكنون داخلي يقع عليه النص لأنه يمثل البداية الموحية لنمط المخاتلة في نسقها المتوهم للمغايرة وهو نوع من اللعب أو((**لعبة المكاشفة ضد المنطق ألنسقي ,والمنطق ألنسقي يتكأ على نوع من الخطاب الذي يقول ما لايفعل به , وبه تكون الدلالة غير منطقية ولا واقعية**))[٣٣].
وهذا ما دفع الخصوم لان يتعاملوا بجفاء مع المنطق لأنهم عدوه خروجا على واقع تصوراتهم ولان المنظومة التي يشكلها النص الصوفي تنطوي على فلسفته التي ركزت على الكثير من المصطلحات ((**وحدة الوجود ,والفناء , والسكر, والتوحيد..**))[٣٤]. تلك العتبات كانت تجسد طرائق المنهج الصوفي لذا فان لكل صوفي طريقته الخاصة في تناول عتباته ورموزه وكيفيات كتاباته وتأويلاته وحتى الوصول إلى سلوكيات التكوين اللغوي[٣٥].إن قابلية النصوص الحلاجية على التأويل يجعلها خاضعة لنمط مغاير من أنماط البحث عن خطاب مهم يراد إيصاله إلى عوالم خاصة والتحلي بسلوكيات في الكلام والرمز بل مجمل الإشارات الدالة المعنونة عبر شفرة مكتملة النضوج تطلق في زمن خاص وكيفية خاصة. تلك الإشارات تجد الحواضن التي تجمعها وتشكل منها على الرغم من تفككها أجزاء متكاملة.إن المناصات التي تقدمها الافتتاحيات الخطابية إنما تندرج ضمن الأثر والإشارة داخل النصوص وهناك رابط استعاري يحمل دلالات صغيرة ترتبط في هيكلية النصوص وإذا تلمسنا التماثل والتشابه فيما بين تلك الرموز ومشابهاتها لوجدنا العناية الفائقة التي رتبت بها قال الحلاج[٣٦].

نظري بدء علتي ويح قلبي وما جنى
يامعين الضنى عليـ ـي, أعني على الضنى

إنها طريق الاتصال إذ يعنف الحلاج نفسه كون النظر بداية العلة لان البصر يقع ضمن الخدعة الأزلية للمبصرين إذ لا إبصار للفهم في البصر, والصوفي يريد الوصول إلى السلوك من خلال الذوبان وبدء عملية العروج بالروح إلى مقاماتها التي تسلكها من

خلال القدرة على الكشف وتجاوز مراتب اليقين , والصوفي يدرك الدخول من بوابة الانطلاق نحو التماهي. والطواسين هي عتبات نصية متكاملة في منهج الحلاج الصوفي لها دلالاتها ورموزها وهي خطابات كبرى اعتمدها الحلاج في ربط مسالة الحب المحمدي الكبير حيث يعرف من الطاء والسين= النفي والإثبات أي إنه فكر الخاص والدائرة التي في الأسفل منزهة عن جميع الجهات[٣٧].

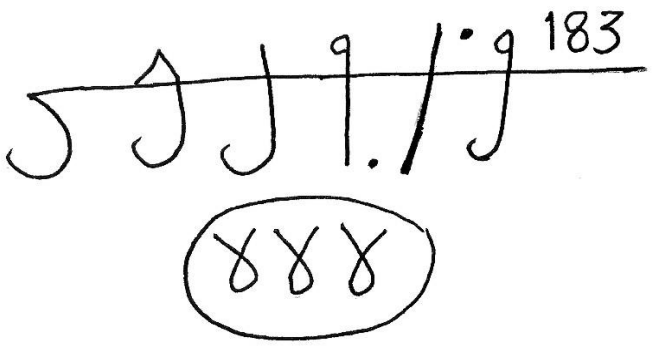

يعد الرسم في أعلاه صورة لمكنون أسرار مهمة هي أسرار كونية تستخدم لهلاك الظالمين إذ يرى الحلاج مثيلاتها في القران فالجزء الأعلى ط والجزء الأسفل س أي أن ط = س وهو طه = محمد في حروف التوراة.

ومن المناصات المغلقة الأخرى هي رمي الخرقة الصوفية التي عبرمن خلالها عن رفضه وتفرده حين صارت الخرقة الصوفية دليل الانسلاخ عن قوانينهم وهي مرحلة الانشقاق وهي إعلان للعدمية= الإيديولوجية[٣٨]

الحلاج - الخرقة الصوفية - خطاب تأويلي
أصالة واستقلال - التشكل بلا تناص ولامرجع
إنتاج فعل سلوكي متكون
من الكلام + الكتابة

نحن ندرج هذه المناصات أو العتبات لنؤكد على أن المناصات التي رسمها الحلاج هي مناصات تكوينية خارجة عن المناصات المجاورة أو المشابهة إذ لم يسبقه احد في مناصاته والتي عدت خروجا واستقلالا لمذهب المتصوفة وهو في الحقيقة كان فوق النص وفوق المناص لأنه كان يمتلك دينامية اللوغوس الصوفي بكل اعتباراته وما الطريقة التي قتل بها الحلاج إلا للكشف عن تلك الأسرار المكتومة في قلبه وتحت جبته لقد قتل الحلاج من اجل كلمة قالها حين سؤل أين ربك قال تحت جبتي فلو كان الحلاج كتوما في تجليات نصوصه لعاش طويلا لذ فهو ولد ليقتل بعد تقطيع يديه ورجليه وقطع عنقه وإحراقه وذر رماد رفاته في دجلة وإحراق كل مؤلفاته ومطاردة كل أنصاره لان التصوف كشف المستور في العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

نخلص للقول :إن الكشف عن المداليل النصية في صوفية الحلاج تجعلنا أمام رجل اوجد لغته الخاصة بل نصوصه الخاصة, وما كتابه الطواسين إلا تجسيدا لتلك الغاية التي أتقنت شفراتها للحفاظ عل الفكر والمبدأ ونقلهما بأمان إلى خارج المحيط الداخلي منطلقا به نحو التكوين والتجسيد لقد أخاف الحلاج أعداءه بحروفه وعلاماته التي صارت تحديا إيديولوجيا خطيرا وكان جل جهدهم أنهم اغتالوا الرجل وصلبوه واحرقوه واهمين أن ذلك يغتال الممانعة ويمنع الانزياحات التي فرزت بعد ذلك. لقد استطاع فكر الحلاج أن يصل إلى الكون كله وهذا يؤكد دور الفعل الحركي ودور الإشارة على الانتصار والتي أعجزت السلطة العباسية عن فهمها والسيطرة على رموزها لتمكن الحلاج من نقل حركته التغيرية ضد الظلم إلى العالم بأسره.

الخاتمة ونتائج البحث :

في الخاتمة ندرك أن الخوض في إشارات ودلالات نصوص الحلاج أمر صعب وغاية صعوبته انه منزلق خطر لثلة من التأويلات التي قد تصيب وقد تخطئ , لكن العمل النصي مشوق للاكتشاف وما وصلنا إليه هو محاولة لكشف النقاب عن حيثيات قليلة في سفر الحلاج المتصوف الرباني الذي نذر نفسه وروحه إلى خالقه.

ومن النتائج التي توصلنا إليها مايأتي.

١- كانت لنا سياحة في دينامية النص الحلاجي ورأينا أن النص مشبع بحركته دائب في دورانه متفاعل مختلف مغلق في سيرورة تأويله لايمكن الاهتداء إليها إلا بالرجوع لأدق المعاجم الصوفية وأدركنا أيضا أن النص يتشكل من خلال إخضاع اللغة والتحايل عليها وصولا إلى مخاتلتها واظهار فاعليتها الإبداعية والجنوح بها إلى نقطة التحول والاعتماد على كل جزيئاتها التكوينية ,
٢- كانت لنا وقفة مع الترابط بين الدلالة والممانعة وأوجدنا رابطا يربط هذا التقارب من حيث أن العلاقة بينهما علاقة اعتباطية وبغير الدلالة لايمكن أن تنجح محاولات الممانعة كون الترابط اتصال مركزي عال الفعل ينم عن حركة وجودية بالتغيير وما الاغتيال إلا تابع وراء الممانعة لايمكن أن يدرك غاياتها بل نجده السبيل إلى القدرة على الكشف لمظان النص وأغواره .
٣- تلمسنا فحوى النص الكوني وقلنا إن النصوص الكونية ولدت متشكلة في رحاب الكون وإنها صنعت لتعبر الأفاق من خلال الترابط الوثيق بين الباث والمتلقي في أرجاء الكون وأدركنا أن الموروث له القابلية على تخطي محليته وصولا إلى أفاق كونية أخرى.
٤- وفي العتبة النصية رأينا أنها مدخل لقرار كوني وخطاب مهم يبدأ على الفور يتشكل من خلال نواة النص إلى مناصات كبرى وقد لاينتمي مناص الحلاج إلى المناصات الأخرى لأنه لايشبهها.
٥- وفي الختام نرجو أن نكون قد وفقنا في رسم بعض الأبعاد الصوفية التي اشتغل عليها النص الحلاجي ونحن لاندعي الإحاطة

بشيء إلا بتوفيق من الله.

الهوامش :

١- ينظر (الكتابة والاختلاف) ص٢٧
٢- نقد/ تصوف –النص – الخطاب – التفكيك ص٣٤
٣- ديوان الحلاج ص ٦٢
٤- كتاب أخبار الحلاج ص٢٢
٥- ينظر(المصدر نفسه). ص ٢٢
٦- ديوان الحلاج ص ٥٦
٧- نقد/ تصوف –النص – الخطاب – التفكيك ص٥٨
٨- كتاب الطواسين ص١٥٧
٩- نقد/ تصوف –النص – الخطاب – التفكيك ص٥٣
١٠- التحليل اللغوي للنص ص ١٥٥
١١- ينظر(الكتابة والاختلاف). ص١٣٤
١٢- كتاب الطواسين ص ١٦٩
١٣- كتاب أخبار الحلاج ص٥٠
١٤- ديوان الحلاج ص٧٥
١٥- نقد / تصوف ص ٦٤
١٦- ينظر(العلاماتية وعلم النص) ص١٣
١٧- سيمياء الكون ص ٤٩
١٨- ديوان الحلاج ص١٠٦
١٩- نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال ص٧٢
٢٠- دريدا عربيا ص٣٣
٢١- ديوان الحلاج ص٦٩
٢٢- كتاب الطواسين ص ١٥٩
٢٣- ينظر (المصدر نفسه). ص١٥٩
٢٤- تشريح النص ص٥٢
٢٥- نقد/تصوف ص٦٥
٢٦- ينظر (المصدر نفسه). ص٦٦
٢٧- ديوان الحلاج ص٤٨-٤٩
٢٨- ينظر(كتاب الطواسين). ص١٧٢
٢٩- ينظر (نظرية النص). ص١٣١
٣٠- ديوان الحلاج ص٤٦
٣١- المصدر نفسه ص١٢٤
٣٢- التحليل السيميائي للخطاب ص١٥٤
٣٣- النسق المخاتل ص١٢
٣٤- نقد/ تصوف ص١٣
٣٥- ينظر(المصدر نفسه). ص١٣
٣٦- ديوان الحلاج ص٢٣
٣٧- ينظر (نقد/ تصوف). ص٨٠
٣٨- ينظر (المصدر نفسه). ص٨٣

مراجع البحث ومصادره:

١- التحليل السيميائي للخطاب , قراءة في حكايات كليلة ودمنة لابن المقفع , الدكتور ناصر شاكر الاسدي, دار السياب للنشر (لندن) ط١ , ٢٠٠٩ م.
٢- التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج. كلاوس برينكر.ترجمة ا.د سعيد حسن بحيري , مؤسسة المختار/ القاهرة ط١ ,٢٠٠٥ م.
٣- تشريح النص , مقاربات تشريحية لنصوص شعرية معاصرة , عبد الله محمد الغذامي , المركز الثقافي , الدار البيضاء/ المغرب ,ط٢ ,٢٠٠٦ م.

٤- دريدا عربيا , قراءة التفكيك في الفكر النقدي العربي , محمد احمد البنكي , المؤسسة العربية للدراسات والنشر , بيروت ط١ ,٢٠٠٥ م.
٥- ديوان الحلاج أبي المغيث الحسين بن منصور بن محمى البيضاوي ويليه كتاب الطواسين ,صنعه كامل مصطفى الشيبي , دار الجمل / بغداد , ط ٣ , ٢٠٠٧ م.
٦- سيمياء الكون , لوري لوتمان , ترجمة عبد المجيد نوسي, المركز الثقافي العربي , الدار البيضاء/ المغرب , ط١ ,٢٠١١ م.
٧- العلاماتية وعلم النص , ترجمة منذر عياشي , المركز الثقافي العربي , الدار البيضاء / المغرب , ط١ ,٢٠٠٤ م.
٨- كتاب أخبار الحلاج تصنيف علي بن أنجب الساعي البغدادي ت ٦٧٤ ه , تحقيق موفق فوزي الجبر , دار الطليعة الجديدة ,سوريا / دمشق , ط٢ ,١٩٩٧ م.
٩- كتاب الطواسين , تحقيق بولس نويا اليسوعي , منشورات دار الجمل , بغداد , ط٣ ,٢٠٠٧م.
١٠-الكتابة والاختلاف , جاك دريدا , ترجمة جهاد كاظم , دار توبقال. , الدار البيضاء/ المغرب , ط١ , ١٩٨٨م.
١١-النسق المخاتل , الخروج على المتن ,د عبد الله الغذامي ,مج علامات في النقد , المجلد(١٠) الجزء (٣٧) , النادي الثقافي بجده , ٢٠٠٠م.
١٢-نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال , د. حسين خمري , الدار العربية للعلوم ناشرون / الجزائر , ط ١ , ٢٠٠٧م.
١٣-نقد/ تصوف- النص – الخطاب – التفكيك , شريف هزاع شريف , مؤسسة الانتشار العربي , بيروت , ط١ , ٢٠٠٨م.

الملخص:

للدلالة والممانعة إرتقاءان في الحركة الفاعلة التي تشترك في رفد العلاقة الاعتباطية وصولا لإستراتيجيات في المعنى المغاير والمساير الذي تجسده الصوفية كمعيار تفاعلي في تنويع دلالات رموزها المؤثرة في الفكر والمنهج .

والحلاج واحد من الإشاريين القدماء البارعين الذين رفدوا الاتجاه الدلالي بمعانيه الباطنة وصولا لثلة من التأويلات التي كانت السبب وراء ظاهرة الترميز والغموض والتشفير التي غلبت على منهج التصوف , الأمر الذي أدى إلى مرحلة من الصراع الفكري حوربت بها تلك الأفكار حربا قاسية لأنها كانت بمثابة الخروج من الممكن إلى اللاممكن .

Abstract

Both denotation and opposition have actively contributed to providing the arbitrary relation to arrive at the strategies of Sameness and difference of meaning which Sophism tenders to embody as an interactive criterion to diversify the denotations of its symbols to establish its opposition in ideology and approach. A-Hallaj was are of the old semiotics who advocated the deep meanings of the semantic trend so as arrive at the group of interpretations which were behind the phenomenon of symbolized and ambiguity that characterized sophism which, in turn ,resulted in one of the stages of ideological conflict because it represented a departure from the possible to the impossible.